المسيلة من خلال كتب الرحالة والمؤرخين الإسلاميين في العصر الوسيط.

د. مرزوق بتة. جامعة المسيلة. الجزائر

الملخص:

إنّ منطقة المسيلة كانت جزء من مملكة ماسينيسا، حيث أن الكثير من الآثار تشير إلى هذا التواجد مثلما هو الحال في سيدي أعمر، تافزة، وفي بوسعادة فإن مثال قلعة البيلياردو دليل قاطع على مرور الرومان من هناك.

شهدت منطقة المسيلة على مرّ العصور وفود العديد من الموجات البشرية، التي أقامت عليها حضارات مختلفة، تركت بصماتها وآثارها التاريخية من احتلال روماني ووندالي ثم بيزنطي، إلى فتح عربي إسلامي، لتأتي فترة الدويلات الإسلامية بدء بالأغالبة، مرورا بالفاطميين ثم خلفائهم الزيريين والحماديين، إلى فترة موحديه وحفصية.

إنّ منطقة المسيلة أثارت فضول الكثيرين بما احتوته من معالم أثرية ومناظر طبيعية وسياحية، وهي مسقط رأس العلماء والفقهاء وملهمة الفنانين والشعراء.

بالإضافة إلى هذا كله فإن المؤرخين في العصر الوسيط خصوصا قد اسهبوا في الحديث عن منطقة المسيلة، وذلك من خلال وصفها من جميع جوانبها الاقتصادية والاجتماعية.

–مقدمة:

تعتبر مدينة المسيلة من بين المدن الاسلامية التي أنشأت في العصر الإسلامي الوسيط، أحدثها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي منذ سنة 313هـ/925م، وكان المتولي لبنائها **علي بن حمدون بن سماك** المعروف بابن الأندلسي، وبعد الفراغ من إنشائها لعبت المدينة دورا هاما على جميع الأصعدة والمجالات حيث لعبت دورا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعمرانيا، وساعدها على ذلك موقعها الاستراتيجي بالإضافة إلى توفرها على مختلف المنتجات والثروات الطبيعية، وهذا ما تجلى في كتابات العصر الوسيط، حيث تحدث عنها المؤرخين والرحالة الجغرافيين الإسلاميين بإسهاب في العصر الوسيط، كما تحدثوا عن موقعها وعن مؤسسها وعن ثرواتها وما كانت تزخر به من محاصيل زراعية وثروتها الحيوانية، بالإضافة إلى حديثهم عن عمرانها.

1_ الإطار الطبيعي والجغرافي لمنطقة المسيلة:

أ. الموقع الإداري:

منطقة المسيلة إحدى أهم مناطق الشمال الجزائري، موقعها الإستراتيجي يربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب وقربها النسبي من الساحل، مما أضفى عليها طابعا مميزا غايرت به الكثير من مناطق الوطن.

انبثقت ولاية المسيلة عن التقسيم الإداري للولايات سنة 1974م، حيث تتربع على مساحة 18175كلم[1]، تضم 15 دائرة و47بلدية.

يحدّها غربا ولايتي الجلفة والمدية، وشرقاً سطيف وباتنة، ومن الجنوب ولاية بسكرة، وشمالاً ولايتي برج بوعريريج والبويرة.

ب. الموقع الجغرافي:

ينتمي إقليم الحضنة –والذي تقع مدينة المسيلة في نطاقه– جغرافيا ومناخيا إلى منطقة السهول العليا، المنحصرة بين السلسلة الجبلية والمرتبطة في الشمال بالبحر، وفي الجنوب بالصحراء أو ما يسمى بإقليم النجود، الذي يشمل كامل المنطقة الممتدة بين الأطلسين التلي والصحراوي، وهو يتجه عموما من الغرب إلى الشرق، وتعود معظم ترسباته إلى الزمنين الجيولوجيين الثاني والثالث، ويزيد ارتفاعه على مستوى سطح البحر إلى 1200م، وتشكل منطقة الحضنة رأس هذا المثلث الجغرافي الذي تعتبر منطقة الحدود المغربية الجزائرية قاعدته[2].

تقع منطقة الحضنة (المسيلة) بقلب القطر الجزائري مشكلة بهذا منخفضاً هاماً بالنسبة للمناطق الداخلية، إذ لا تزيد نسبة ارتفاع سطحها عن **أربعمائة متر (400م)** على مستوى سطح البحر، مع ما دون الصفر في نواته الأساسية المغمورة تحت مياه السبخة، ويتميز إقليمها بخصائص جغرافية قلما يشاركه فيها إقليم آخر بشمال إفريقيا، سواء من حيث مظاهر السطح أو المناخ أو النشاط الاقتصادي والاجتماعي.[3]

2– مدينة المسيلة من خلال المصادر الإسلامية:

يعتبر **البكري (ت487هـ)**، من المؤرخين الذين تحدثوا عن مدينة المسيلة في العصر الوسيط، ومن الذين قاموا بوصف المدينة وصفاً دقيقاً، وتقديم صورة واضحة عما كانت عليه المدينة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي، من حيث سكانها، وأسواقها، وزراعتها، وحيواناتها، ومياهها، حيث قام بالحديث عنها ووصفها عندما تحدث في مؤلفه عن الطريق من قلعة أبي الطويل إلى مدينة تنس، وفي هذا الصدد يقول: "...نخرج من القلعة إلى مدينة المسيلة، وهي مدينة جليلة على نهر يسمى بنهر سَهْر أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة ثلاث عشرة وثلاث ماية، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سِماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي، واستعمله القائم عليها، فلم يزل بها إلى أن هلك في فتنة أبي يزيد وبقي ابنه جعفر فيها، وصار أميراً على الزاب كله إلى أن خرج عنها في سنة ستين وثلاث ماية، وهي مدينة في بساط من الأرض عليها سوران بينهما جدول ماء يستدير بالمدينة، وله منافذ يسقى منها عند الحاجة، وللمدينة أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة، ويجود عندهم القطن، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر، وبها عقارب مهلكة لا يتخلص من لسعها، ويقرب منها جبل عجيسة وهوارة وبني برزال، ولهم كانت أرض المسيلة كما وبقبلي يعرف بالقباب فيه قباب من بنيان الأول، وعلى مقربة منها مدينة للأول خربة يقال لها **بشيلقة** فيها جدولان من ماء عذب جلبه الأول إليها، يقال لها تارقا أذوودي تفسيره ساقية السمن. وقال أحمد بن محمد المروذي يذكر نزول إسماعيل بالمسيلة، والشيعة تسميها المحمدية:

ثم إلى مدينة مرضية * أسست على التقوى محمدية.**
أقبل حتى حلها ضحية * بالنور من طلعته المضية.**
فحل في عسكره المسيلة * في هيئة كاملة جميلة.**
للنصر في أرجائه مخبلة * بنعمة من ذي العلى جليلة.**

ونهر سهر الذي عليه مدينة المسيلة منبعثة من عيون داخل مدينة غدير وأرّوا[4].

أما **الإدريسي** (**493–560هـ/1100–1165م**) صاحب كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** والذي أكمل وأتم كتابه سنة 548هـ، فلقد تحدث عن المدينة وتأسيسها والمحاصيل التي كانت تزرع بها، وذلك من خلال قوله: "...ثم إلى المسيلة مرحلتان وهي مستحدثة استحدثها علي بن الأندلسي في ولاية إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهم– وهي عامرة في بسيط من الأرض[5]، ولها مزارع ممتدة أكثر مما يحتاج إليه، ولأهلها سوائم خيل وأغنام وأبقار، وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم، ومزارع قطن وقمح وشعير، ويسكنها من البربر بنو برزال ودنداح وهوارة وصدراتة ومزاتة، وهذه المدينة أيضاً عامرة بالناس والتجار، وهي على نهر فيه ماء كثير مستنبط (منبسط) على وجه الأرض وليس بالعميق، وهو عذب وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة، ولم يُرَ في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به ويكون مقدار هذا السمك من شبر إلى ما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل منه إلى قلعة بني حماد، وبينهما اثنى عشر ميلاً[6].

أما صاحب كتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار** _وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، وهو لكاتب مراكشي مجهول من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، وهذا الكتاب كان يصنف في سنة 587هـ/ 1191م، كما يفهم من بعض إشاراته، فيتحدث عن مدينة المسيلة بقوله: " مدينة المِسيْلة أقرب بقلعة حماد من بلاد الزاب مدينة المسيلة، وهي في بسيط من الأرض على نهر كبير يسمى بَسُهر، ومنبعه من مدينة الغدير[7].

مدينة المسيلة أحدثها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي منذ سنة 313هـ/925م، وكان المتولي لبنائها **علي بن حمدون بن سماك** المعروف بابن الأندلسي، فلم يزل بها أميراً حتى مات في فتنة أبي يزيد، وبقي ابنه جعفر أميراً فيها، وولي على بلاد الزاب كلها. وهذا جعفر ممدوح محمد بن هاني الأندلسي الشاعر المشهور، وكان من أكثر أهل زمانه إحساناً. ومدينة المسيلة كثيرة النخل والبساتين تشقها جداول المياه العذبة، وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير، وكان يقيم حولها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوّارة، وبني بَرْزال[8].

أما **ياقوت الحموي** (ت626هـ/ 1228م)، فنجده أيضاً هو الآخر من الكتاب الذين تكلموا وتحدثوا عن مدينة المسيلة في كتابه معجم البلدان، المجلد الخامس، وذلك بقوله: "**المَسِيلَةُ**: بالفتح ثم الكسر، والياء ساكنة ولام: مدينة بالمغرب تسمى المحمّدية اختطّها **أبو القاسم محمد ابن المهدي** في سنة 315هـ، وهو يومئذ وليّ عهد أبيه، وأبو القاسم هذا هو الذي يلقب بالقائم بعد المهدي من المنتسبين إلى العلويين الذين كانوا بمصر، ينسب إليها أبو العباس أحمد بن محمد بن حرب المقري، بمصر قرأ القرآن ورحل إلى بطليوس فلقس بها أبا بكر محمد ابن مزاحم الخزرجي، وقرأ عليه أبو حميد عبد العزيز ابن علي بن محمد بن سلمة السيحاني المقري[9].

أما **حسن الوزان** الذي ولد حوالي سنة 888هـ/1483م، أي قبل سقوط مدينة غرناطة897هـ/ 1492م، بنحو عشر سنوات فيقول عن مدينة مسيلة: " مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء نوميديا داخل الأراضي، على بعد نحو مائة وأربعين ميلاً من بجاية، الأسوار المحيطة بها جميلة بخلاف الدور فإنها قبيحة. والسكان كلهم صنّاع أو فلاحون، يرتدون لباساً رديئاً لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين كانوا يسلبونهم

مداخيلهم، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب. وقد اندهشت للفقر السائد بمسيلة عند مروري بها، فلم أجد الشعير لفرسي ولليلة واحدة إلا بمشقّة. ولو أقمت بها ليلة أخرى لما تمكنّت من الحصول على مثل ذلك لكثرة البؤس والفاقة السائدين في المدينة[10].

إن تتبعنا لحالة مدينة مسيلة من خلال وصف وكلام حسن الوزان نلمس ونستشف بأن المدينة كانت تمر بمرحلة صعبة جداً، وخصوصاً فيما تعلق بالفقر والبؤس والحرمان الذي كان يعاني منه سكانها وأهلها في هذه الفترة، على عكس ما كانت تنعم به المدينة من خيرات ورخاء وغنى في الفترة التي عاش فيها وعاصرها المؤرخ البكري.

أما **مارمول كربخال** الذي ولد بغرناطة في أوائل القرن السادس عشر في كتابه إفريقيا الجزء الثاني الذي أتم تأليفه على الأصح إلا بعد سنة979هـ/1571م، فإننا نجده يحذو نفس حذو حسن الوزان وعلى الأخص في الحديث عن حالة البؤس والقهر والفقر التي كان يعاني منها سكانها، فنجده يقول عن مدينة مسيلة أنها :" مدينة عتيقة في طرف نوميديا، تحيط بها أسوار جيدة عتيقة من بناء الرومان. كانت هذه المدينة في قديم عهدها غنية زاهرة، ولكن العرب خربوها عند بداية عهدهم وعمرها بعد ذلك سكان فقراء، لا يتخلصون من ذل أعراب تلك الجهات وعسفهم، حيث كانوا يغصبون زروعهم ومواشيهم ويتركونهم على حال من البؤس الشديد، وهي اليوم تحت حكم الأتراك، بنى بها **صالح رايس** قلعة بها حامية مكونة من بعض الفرسان يحرسونها، وتحيط بها جبال بني عباس وتبعد عن مجانة بعشرة فراسخ، وقد قام **حسان باشا** بتسليمها إلى صاحب بني عباس وسلم له معها ثلاثة مدافع، كان صالح رايس قد تركها عندما جاء من يوم توكَور. ومنذ تلك اللحظة أمر حسان بنقل هذه المدافع إلى حصن مدينة القلعة حيث ما يزالون إلى الآن، وبين هاتين المدينتين خمسة عشر فرسخاً"[11].

أما **ابن حوقل** –الذي عاش في القرن العاشر– صاحب كتاب **صورة الأرض**، فلقد تحدث عن مدينة المسيلة، بقوله: "...ومن مقرة إلى المسيلة مرحلة، وهي مدينة محدثة استحدثها علي بن الأندلسي أحد خدم آل عُبَيد الله وعبيدهم، وعليها سور حصين من طوب، ولها واد يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض وليس بالعميق، ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم، ولهم من السفرجل المعنَّق ما يحمل إلى القيروان وأصله من تنس، ومن غلاّتهم القطن والحنطة والشعير، وتكثر عندهم المواشي من الدواب والأنعام والبقر، وعليها من البربر بنو برزال وبنو زنداج، وهوارة مزاتة، وعليهم صدقات وخراج غزير"[12].

أما المؤرخ **أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد** (ت732هـ)، فإنه يقول عنها نقلا عن ابن سعيد: " ومدينة مسيلة محدثة بناها الخلفاء الفاطميون خلفاء مصر، ولها نهر يمرّ بطرفيها ويغوص في الصحاري والرمال، وهي في شمالي بسكرة، قال في العزيزيّ ومدينة المسيلة محدثة أحدثها القائم بالله الفاطمي، سنة خمس عشرة وثلثماية، وسماها المحمدية..."[13].

أما **القلقشندي** صاحب كتاب صبح الأعشى، فتكلم أيضا عن المدينة، في قوله: "...ومنها المسِيلة قال في تقويم البلدان عن الشيخ عبد الواحد: بكسر الميم والسين المهملة، وسكون المثناة من تحت، وفي آخرها لام ألف، والجاري على الألسنة فتح الميم وهاء في الآخر. وهي مدينة من بلاد الجريد، موقعها في الإقليم الثالث قال ابن

سعيد حيث الطول ثلاث وعشرون درجة وأربعون دقيقة، والعرض تسع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة. قال في العزيزيّ: وهي مدينة محدثة، بناها القائم الفاطمي سنة خمس عشرة وثلاثمائة. قال ابن سعيد: ولها نهر يمرّ بغربيّها ويغوص في رمال الصّحارى"[14].

أما عند **محمود مقديش** فلقد وصف المدينة بقوله: " ومن مدينة تنس إلى المسيلة من بلاد بني حماد بالغرب الأوسط، وهي مدينة استحدثها علي بن الأندلسي في ولاية إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (الحسين) بن علي ابن أبي طالب –رضي الله عنه– وهي عامرة في بسيط من الأرض، ولها مزارع ممتدة، ولأهلها سوائم خيل وأنعام، ولها جنّات وعيون وفواكه، وبقول ولحوم، ومزارع قطن وحبوب، ويسكنها من البربر بنو بِرْزال، وبنو زَنْدَاح، وهوَّارة، وصدراتة، ومزاتة، وهذه المدينة عامرة بالتجّار وهي على نهر فيه ماء كثير منبسط على وجه الأرض، وليس بالعميق، وهو عذب وفيه سمك صغير عليه طرق حمر حسنة، ولم يُرَ في معمور الأرض سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به ويكون مقداره من شبر فدون وربما صِيدَ منه الكثير، فاحتمل منه إلى قلعة بني حمّاد، وبينهما اثنا عشر ميلاً"[15].

–الهوامش:

[1]_ بيرم (كمال)، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية– فترة الاحتلال الفرنسي(1840–1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 2010–2011، ص08.

[2]_ نفسه، ص08.

[3]_ شنيتي (محمد البشير)، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريتاني) ومقاومة المور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ج1، ص ص159، 160.

[4]– أبي عبيد (البكري)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب –جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت، ص59.

[5]– الإدريسي (الشريف)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس _مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع في مكتبة لَيْدَن المحروسة، مطبع بريل، 1863، ص85.

[6]– نفسه، ص86.

[7]– مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار _وصف مكة، والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار النشر المغربية، 1986، ص171.

[8]– نفسه، ص172.

[9]– الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج05،ص130.

[10]– الوزان(الحسن بن محمد الفاسي)، وصف إفريقيا، ترجمة: حجي محمد ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2، ص52.

[11]- كربخال(مارمول)، إفريقيا، ترجمة: حجي محمد وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988، ج2، ص381.

[12]- النصيبي (أبي القاسم بن حوقل)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت -لبنان، 1996، ص85.

[13]- أبي الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد)، تقويم البلدان، صححه: رينود وكوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830، ص139.

[14]- القلقشندي (أبي العباس أحمد)، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ج5، ص107.

[15]- مقديش (محمود)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: الزواري علي، محفوظ محمد، دار الغرب الإسلامي، د ت، مج1، ص79.

-قائمة المصادر والمراجع:

[1]- أبي الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد)، تقويم البلدان، صححه: رينود وكوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830.

[2]- القلقشندي (أبي العباس أحمد)، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ج5.

[3]- مقديش (محمود)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: الزواري علي، محفوظ محمد، دار الغرب الإسلامي، د ت، مج1.

[4]_ شنيتي (محمد البشير)، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريتاني) ومقاومة المور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ج.1

[5]- أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب –جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت.

[6]- الإدريسي (الشريف)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس _مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع في مكتبة لَيْدَن المحروسة، مطبع بريل، 1863.

[7]- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار _وصف مكة، والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار النشر المغربية، 1986.

[8]- الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977 ،مج05

[9]- الوزان(الحسن بن محمد الفاسي)، وصف إفريقيا، ترجمة: حجي محمد ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج2.

[10]- كربخال(مارمول)، إفريقيا، ترجمة: حجي محمد وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988، ج2.

[11]- النصيبي (أبي القاسم بن حوقل)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت -لبنان، 1996.

-الرسائل الجامعية:

[12]-بيرم (كمال)، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية- فترة الاحتلال الفرنسي(1840-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 2010-2011.